جزيرة الملعونين

برهان الخطيب

اذا كان البشر يبدأون حياتهم في الحاضرة ، ويواصلونها في الآخرة فملعونو هذه الجزيرة لا علاقة لهم بهذه او تلك ، بزمن او مكان خارج حدود منفاهم ، ذلك انهم يعيشون في مستعمرة الجذام . .

الذين يعيشون خارج المستعمرة لا يعرفون شيئا عن شأنها ، اما الذين يعيشون على ارضها فقد عطبت حواسهم منذ دهر طويل ، فبدا لهم ما حولهم امرا جد طبيعي ومقبولا . لقد ابتلوا بما ابتلي به النبي ايوب عليه السلام ، هكذا اقنعوا انفسهم ، صبر عشرين عاما ، ومنهم من صبر ثلاثين وعندما حانت معجزة الشفاء لم يعد يرغب بهجر المستعمرة ، فحوله الان عياله وماله ، ومن يرغب بذلك اذا لم يبق من اصابعه ، وقد تآكلت على مر الزمن هنا، سوى نتوءات ينظف بها مزاغل لثته المتهرئة، كما كان يفعل ذلك من قبل بعيدان الثقاب في تلك الايام التي اصبحت الان غريبة ، بعيدة ، منسية .

تقع المستعمرة في جزيرة بجنوب البلاد . قريبا من مدينة كبيرة ، فتحيطها المياه من كل جانب ، الا جسر قديم يجمعها الى اليابسة ، يمد عند قدوم التعيينات والرسائل من العالم الاخر . تجري الايام هنا كما في كل مكان ، سوى قليل اختلاف ، فقاطنو الجزيرة لم يعودوا يمضغون الطعام مثلا كما يفعل الاخرون ، لان عليهم ان يضعوا ايديهم بالتأكيد امام افواههم اثناء الاكل كي لا تسقط مضغ الطعام منها . . فهم بلا شفاه منذ امد بعيد ، وهذا لم يمنعهم بالطبع من مواصلة الكلام ، فقد تكونت لهم شاءوا ام ابوا ، لغة جديدة ، ذات المفردات القديمة ، لكنها منطوقة الان بايقاع جديد ، فاذا ارادوا قول : « محمد مات » مثلا ، وهو آخر من ارتحل عنهم ، قالوا : « محّد مات » او : « مدد هات » او غير ذلك من الكلام الذي يعني ما يجري في واقع الامر ، وإن كان منطوقه مختلفا تماما عن المعنى ربما . ولكن الجميع ما كانوا آبهين لما ينطقه غيرهم ، فقد كان كل منهم يعرف ما يجري في حقيقة الامر ، وإن لم يجدوا بينهم من يستطيع التعبير عن ذلك بدقة ووضوح آن تلك الأيام الخوالي البعيدات .

لو كان الامر يتوقف عند هذا الحد لهان ، فمن مظاهر الداء انهم لا يفقدون شفاههم حسب ، بل ويبدأون ايضا ، وفي الوقت نفسه ، بفقدان آذانهم ايضا ، يتساقط منها مع مرور الايام قشور وغبار ، مرئي وغير مرئي ، ومع الحكّة المستمرة تصغر آذانهم شيئا فشيئا حتى يختفي الصيوان تماما ، وهذا لا يمنع ان يظلوا قادرين على السماع وفهم ما يجري حولهم ، ولكن ليس بالدقة التي كانوا يفعلون بها ذلك من قبل . فصوت تساقط المطر مثلا او اهتزاز الاغصان او هسيس النار لم يعد له مكان في احاسيسهم . كذلك الامر بالنسبة لأنوفهم ، الا ان ما يجري معها امر اكثر تعقيدا ، لانهم يفقدون مع زوال انوفهم حاسة الشم فلا يكونون قادرين على التمييز بين رائحة الجثث والزهور ، فتستوي امام اعينهم فيما بعد . . الاشياء كلها .

لعل امرهم كما يؤكد كل من رآهم من الخارج يبدو مخيفاً ؛ رجال ، نساء ، اطفال ـ هؤلاء يظلون محتفظين بوجوههم سليمة الى حين ـ ما ان يستفحل المرض ويقطع شوطا ، قد يبلغ النصف من دورته العامة ـ لان بعضا منهم يشفون فجأة في نهاية الامر ـ حتى يتساوى الرجال والنساء والاطفال فتراهم وقد فقدوا شفاههم ، آذانهم ، انوفهم ، خدودهم ، اسنانهم ، اصابعهم ، تمّحي باختصار شيئا فشيئا حتى يغدوا هياكل عظمية مغطاة بجلود يابسة مبريّة . فاذا رآهم احد من غير قاطني الجزيرة ظنهم سلالة غريبة من النسانيس لا علاقة لها بجنس البشر . ورغم ذلك فقد وجد من قال عنهم انهم نوع آخر من مخلوقات الله ، قد يفوقون البشر الاعتياديين احيانا حبا للجمال والحياة ، وحكاية فرات العكاب هنا تفصح عن الكثير .

مجتمع جزيرة المجذومين طبقات ، مثل كل مجتمعات الدنيا البعيدة الاخرى ، فيه الاغنياء والفقراء ، الراضون بقسمتهم والناقمون على اوضاعهم ، المتفائلون واليائسون ، فيه كل الاصناف سوى الاحزاب ، فيمكن القول عن مجتمعهم الموحّد امام الداء انه نموذجي في هذا الضرب ، وإن كانت مكانة المسؤول الاداري عن الجزيرة موضع شك وارتياب ، فهو ان لبّى طلبات قاطني الجزيرة من الصابون والدواء والغذاء فله كل الصفات المثلى وإن تأخر او تردد في تلبيتها ، لأمر في نفسه او لطارىء خارجي فهو طاغية ، متعسف ، لارجاء منه ، حتى اصبح في اعين قاطني الجزيرة بمكانة رئيس دولة . الجهاز الاداري هنا ، ومنه الشرطة والاطباء والمسؤول الاداري عن المستعمرة ، هم من المصابين ايضا ، حالهم حال الجميع ، ولا فرق بين هؤلاء وغيرهم الا بالحظوة امام اصحاب الامر في العالم الاخر .

تجيء التموينات والرسائل الى الجزيرة مرة في الاسبوع ، يمد الجسر ، ودون ان يفتح باب ، او يخطو احد بين هذا الصوب وذاك ، يلقى بها الى القاطنين عبر نافذة تفتح خصيصا لذلك في مبنى الادارة ، من غير ان تلامس ايدي الغرباء يدا او شيئا من عالم المستعمرة ، فالعدوى لا تحتاج الى تأشيرات للسفر . ثم يمضي اولئك الاجانب بعد ان يسمعوا من المصابين الشكاوى والطلبات المعتادة المكرورة ، واما الرسائل فلا حق لهم بتوجيهها الى العالم الاخر ، فهي قد تحمل العدوى ايضا الى السالمين ، واما من يريد ابلاغ اهله الخطاب ، إن ظلوا على اتصال به ، فقد يكلف احدا من اولئك الغرباء او من القادمين لزيارة مرضاهم ، الذين يقفون ايام الزيارات على الشاطىء الآخر يتبادلون الكلام معهم من بعيد بصوت مرتفع ، ليحرر له مكتوبا يرجوه ايداعه البريد بالعنوان الذي يفصح به اليه .

والى هذا ، ليس غير قدوم قاطن جديد الى الجزيرة يحرك ساكنها ، واما اذا كان القادم من هناك من جنس النساء فقل على دنياها السلام ذلك

اليوم . الذكور هنا لسوء الحظ اكثر عددا من الاناث ، فما ان تطأ قدم المرأة القادمة ارض الجزيرة وقد احيلت الى العزل بحراسة الشرطة حتى يتقاطر الخطّاب عليها ، بهدوء اول الامر ، عارضين عليها ما ملكت ايديهم من ممتلكات متواضعة ، فهذا قد انشأ كوخا من القصب ، وهذا قد بنى غرفة من اللّبن ، وهذا يملك سريرا ، وهذا صنع كرسيا ضافيا ، ثم هذا يعير صاحبه باذنيه الساقطتين ، وهذا يتفاخر بما بقى لوجهه من قسمات منسية ، حتى ينشب العراك الدموي العام المعتاد للفوز بقلب القادمة الجديدة ، وليس نادرا ما ينتهي العراك بضحية تفقد حياتها في ذلك الصراع ، بينما تكون عروسة الليلة الجميلة تنظر حولها خائفة دون ان تفهم شيئا مما يجري ، فهي ما تزال جاهلة بعد بتفاصيل هذا العالم العجيب ، اما جمالها فهو ماثل في اعين قاطني الجزيرة مهما كانت قبيحة ، ما دام المرض لم يشوهها بعد . وفي الختام تكون العروسة من نصيب الاقوى بالطبع ، حيث يسارع ، سواء أرغبت المرأة أم لم ترغب ، بعقد قرانه عليها امام الجميع ، حسب الاصول والشريعة ، فللجزيرة قاضيها ايضا ، اختاره قاطنوها من بين المتزوجين القدماء الذين افلحوا حتى هذا الحين بانجاب ذرية وتأسيس عائلة متينة البنيان ، استقرت في بيت من الطوف على الشاطىء الجنوبي .

يعرف الجميع ان اقامتهم هنا تطول ، وغالبا ما امتدت اقامة بعضهم مدى الحياة ، لذلك كانوا حريصين على الحصول على زوج يبث الدفء في فراش الشتاء البارد ، ويقضم معهم نهارات الصيف الطويلة ، بعد ان فقدوا الامل بالشفاء او بموافاة الزوجة او الزوج الى محل عيشهم الجديد والسكنى معهم تحت سقف واحد . اما من ظل وحيدا منهم فقد كان يمني النفس بقدوم مريضة جديدة او بالشفاء سريعا والعودة الى احضان زوجته او كنف اهله للتمتع ولو يوما واحدا قبل الممات برائحة البيوت التي يسكنها البشر الاسوياء .

فرات العكاب كان واحدا من هؤلاء ، قدم اليهم قبل اكثر من عام . لكنه لم يصدق ابدا ان بامكانه البقاء اسير هذه الجزيرة يوما آخر بعد ، وكل يوم يمر كان يفكر فيه انه الاخير ، وان ثمة شيئا خارقا سيحدث بالتأكيد في الغد يغير من واقع هذا الجنون الذي يعيشونه . كان البعض يتعاطف معه ويتفهم معاناته ، فقد مر بهذه الحالة من قبل ، وكان هذا التعاطف يخفف شيئا من غلوائه احيانا ، فانعقدت له اواصر صداقة ومعرفة بالممرض وغيره . كان فرات العكاب بنّاءاً معروفا في المدينة الكبيرة القريبة ، شيّد أكثر من عشرين بيتا فيها وطاف يعمل في المقاولات الآونة الأخيرة وعند أول قدومه الى الجزيرة كان وجهه المستطيل على قدر كبير من الملاحة ، بشرة صافية ذات سمرة مشربة . بحمرة لطيفة ، عينان لامعتان ، وشارب مستقيم اسود معتنى به ، كل ذلك جعله شبيها بجيلبرت رولاند ، الممثل الامريكي الذي اعجب به الكثيرون من قبل ، اما شعره الاثيث الاسود فقد غطى ساعديه وما ظهر من صدره كقرد جميل غريب ، حتى ان الممرض عجب في البداية اشد العجب لقدومه اليهم ، اذ ان اول ما يتساقط ممن يصابون بالداء شعرهم ، فسأله عن موضع اصابته ، رفع فرات انذاك ذراعه اليسرى وكشف له عن ابطه فلاح تحت دغله بقعة تيبست حتى كادت تبيض لجفافها ، استوضح محدثه بعد لحظة :

ـ وغير هذا ؟

ـ بقعة مماثلة في باطن القدم اليسرى .

اراد العكاب رفع قدمه ليريه اياها ولكن صاحبه استفسر :

ـ لا اكثر ؟

ـ لا اكثر .

ـ هل تساقطت قشور او غبار منهما ؟

ـ كلا ، ولكنهما تحكّاني كثيرا .

ولكن ما حزّ في نفس العكاب ليست حزوز المرض وآثاره التي راحت تتفشى في وجهه بعد امتداد اقامته بينهم اشهرا ثلاثة ، بل غيرة عنيفة على زوجة آية في الجمال ـ كما اسهب هو في وصفها لبعضهم اكثر من مرة ـ خلفها وحيدة مع قريبة لها في بيت انتهى قبل فترة من تبشييده لها . كانت الاسابيع الاولى قد مرت ، وتبعتها اسابيع اخرى ، وكان شوق فرات العكاب لزوجته وانتظاره لها يزدادان ويلتهبان في صدره ، ولكنها لم تزره الا بعد مرور فترة طويلة ، وقفت بعيدا في الصوب الاخر وارسلت مع احد الزائرين ما حملته معها من سكائر وملابس وسكر وشاي ليرمي بها عبر نافذة التموينات اليه . لم يلق فرات العكاب بالا الى ما ارسل اليه ، بل رفع صوته حال لمحها بين الواقفين هناك مناديا اياها لعبور الجسر ، انتهره شرطي مسلح وراح يمنع اقارب المرضى من الاقتراب خشية انهيار الجسر ، فسُمع بعد ذلك يطلق عويلا مفاجئا ، متوسلا بها بما يشبه الهذيان للانتقال اليه والسكنى معه في الجزيرة ، طالبا من افراد الشرطة ان يأتوا بها اليه ، ولكن الزوجة الجميلة كانت فزعة من الوجوه المتآكلة التي اطلت عليها فوق الجدران ، ففرت مذعورة دون ان تنبس بحرف . .

سأل الممرض فرات العكاب بعد زوال نوبة هذيانه وانهياره :

ـ ما الذي دهاك ؟ الا تريد ان تصدق ان الماضي مات ولا عود اليه ثانية ، وان عالمنا اليوم غير عالمنا امس !

وكان الرجل قد فقد الكثير من حيويته وحضوره فبدا غائم الوجه ، اجاب وكأنه لم يسمع كلامه :

ـ قلبي يحدثني ، الامور هناك ليست على ما يرام !

فهم الآخرون فيما بعد ان غيرة العكاب قد بدأت تتحول الى شكوك راحت تنهش صدره ، وكان مع مرور الوقت وتعرّفه على احوال المستعمرة يزداد تذمرا وشكوى ، وكانت الاحوال تثير التذمر والشكوى فعلا حتى عند اكثر المستسلمين لقدرهم صمتا ، فالصابون والدواء لم يكونا متوفرين دائما وهما اشد ما يحتاجه المصابون في منفاهم هذا ، والمجلات والجرائد لا يرونها الا صدفة عابرة ، والادارة لا اتعس منها ادارة في الدنيا . حكى الممرض للعكاب مرة تزجية للوقت حكاية اهل مدينة وهران الذين حاصرهم الطاعون داخل اسوار مدينتهم ، نقلا عن رواية قرأها قبل وقوعه (الممرض) في اسار هذه المستعمرة الملعونة ، وقارن بين وضعهم ووضع تلك المدينة البائس ، ففاجأه العكاب بعد برهة بقول غريب اذ افصح :

ـ الطاعون يشبه عدوا يهدد الناس من الخارج بالجملة ، اشبه باسرائيل مثلا . ولكن الجذام في حالتنا يختلف عنه في انه يهددهم فرادى ، كل على حدة ، كأن اسبابه في جيوبنا ، في دواخلنا ، فانا لا استطيع ان افهم حتى الان : من اين اصابني هذا المرض الخبيث !

تساءل الممرض الذي كان يزداد ميلا للعكاب :

ـ حقا ، كيف اصابك هذا المرض اللعين ؟

كانا قد خلفا بيوت المستعمرة وراءهما ، وتجاوزا حقولا صغيرة جعلها بعض المصابين تحت وصايتهم فكانوا يقومون بتحضيرها لزرع جديد . وسارا ، وقد بلغا حدود الجزيرة ، على الجرف بمحاذاة الماء ، بينما ظل فرات العكاب صامتا فترة طويلة ، حتى قال :

ـ احد مسؤ ولي الصحة الكبار كان يتردد على بيتي كل يوم يحاول اقناعي بالاتفاق معه وعدم الاختلاف حول مقاولة انشائية كبيرة ، ولكني كنت غارقا في اشغالي حتى يافوخي ، بطران ، يوقف سيارته قرب بابنا ويقول : كن معي وانا اضمن لك مردودا اكثر ، لا ذمة له ولا ناموس ، لم يكن يستحي حتى من توجيه النظر بحضوري الى زوجتي حال يراها قادمة من بيت الجيران أو مارة في الحديقة ، عيناه المالحتان لم تعجباني أبدا ، ما انتظرت منهما خيرا لا ورب العباد . . .

سكت فرات العكاب برهة طويلة وحاول خلال ذلك تنشيف القيح النافر من انفه بكمه ، و كانت شفتاه قد تورمتا قليلا وتيبستا واتخذتا ذلك اللون الوردي الاغبر الشبيه بلون جلد ابي بريص عند الحمل ، والذي يسبق هجوم المرض عليهما فالفتك بهما تماما ، ولكن صوته كان ما يزال حيويا ، كأنه لم يغادر بعد حدود ذلك العالم المنسي . . . اضاف :

ـ زارته زوجتي في عيادته شاكية من حكّة ادعت انها انتقلت اليها مني ، فجاءني الى البيت مقررا فحصي ايضا ، لارضائي او يعلم الله لأي سبب ، وكنت اشكو بدوري منذ فترة من حكّة تحت ابطي وفي باطن قدمي كما تعلم ، فماذا كانت النتيجة ؟ راح يصيح ويستغيث لاهمالي هذه الحكة . وخرج من بيتي غاضبا منفعلا ، وبعد اسبوع من التحليلات والفحوصات نقلوني الى هنا مخفورا مع الشرطة . واما من اين جاءني هذا المرض ، فهذا ما لم استطع التعرف عليه حتى الان !

كان العكاب يواصل تنشيف قيح انفه . ولكن لا القيح ، ولا الحكة ، ولا تآكل الانوف والاذان والشفاه ، ما عاد كل ذلك يثير الاشمئزاز الان ، فقد اعتاد الجميع على القبح حتى باتوا يرون فيه شيئا من الجمال ، والمشوّه في مجتمع تشوّه بأكمله لا يستطيع أن يرى حقيقة صورته ، ولكن العكاب ما كان ليرضى التسليم بكل هذا ، ذلك ان زوجته الفائقة الجمال ، التي تعيش هناك ، تذكّره دائما ان حاول المرض دفعه للنسيان بمعنى وقيمة الجمال الحقيقي ، ولهذا كان العكاب مشدودا ابدا الى خارج قدر هذه المستعمرة ، يتطلع باستمرار الى خلاص مفاجيء يهبط عليه من لا مكان يعيد اليه صورة ذلك الجمال، الذي لا يريد أن يعترف انه فقده إلى الأبد. كم تعذب ويكى وشقي لانه لم يستطع ان يفهم يوما مبرر وجدوى كل ما حدث له ، اهذا جزاء تعميره الارض السِبَاخ اذن ، والعرق الذي نزفه كي يسكن الناس في بيوت آمنة جميلة ؟ هكذا كان فرات العكاب يفكر غالبا ، وكان المرض يهون الامر عليه فيذكره بامتحان الرب للنبي ايوب اذ ابتلاه بهذا الداء ، فكان فرات يجيبه ونبرة يأس ترشح من صوته : من يبني البيوت بيديه لا يمكن ان يصدق ان يجدها قائمة هكذا لوحدها دون جهد من بان ! الحياة التي يعيشها المصابون في مستعمرة الجذام لا تدفع المرء كما يبدو ليفلسف الامور على هواه ، بل وقد تدفعه الى الجنون او التفكير بالهرب ، ولكن انّى له ذلك والجسر ، المنفذ الوحيد ، تحرسه شرطة مسلحة ليل نهار على استعداد لاطلاق النار على اول هارب ! ورغم ذلك صحا قاطنو الجزيرة صباح احد الايام ، واذا بفرات العكاب غائب من بينهم . لم يحتج الامر للتفتيش عنه في ارجاء جزيرتهم الصغيرة طويلا ، او التفكير انه انتحر غرقا في المياه المحيطة بهم ، فقد كان مجمل سلوكه فيما مضى من ايام يشير الى انه قد عزم على الهرب في يوم قريب . .

ثلاثة اسباب كانت تمنع قاطني الجزيرة من التفكير بامر الهرب ، أولها الامل بالشفاء ، ثانيها اليأس من قبولهم في مجتمع الاسوياء ، وثالثها صعوبة الهرب إن لم يكن استحالته . وما ادهش الممرض في هرب فرات العكاب انه الوحيد الذي جرؤ على ذلك ، دونه . لقد فكر الممرض بدوره بالهرب مرارا ولكن فقدان الهدف جعله ينكص عن ذلك دائما ، لقد اعتاد على مجتمع المستعمرة كما كان معتادا على مجتمع الاسوياء قبل ان يصيبه الداء ، فاصبح شأن العيش لديه سواء . اما والعكاب له زوجة جميلة فتلك مسألة اخرى .

. . . مرت ايام الزيارات ، تتعاقب يوما بعد آخر ، ولا اثر لزوجة العكاب بعد فرارها في اول زيارة لها ، فكان الرجل يزداد احتداما . . . ما الذي حدث ؟ ايمكن ان تتخلى امرأته عنه هكذا ؟ ايمكن ان تكون الحياة متقلبة هكذا ؟ هل كتب عليه اخيرا ان يودع الجمال الذي عشقه دائما الى الابد ؟ انت غادر ايها الجمال ، كما تصفك الاغاني الحزينة غالبا ! اهي النهاية اذن ! . . وكانت ناره تزداد اشتعالا مع الزمن حتى سكب احد القادمين الغرباء من معارفه زيتا على هذه النار يوما فزادها اضطراما والتهابا . . لقد اخبره ان زوجته تلطخ اسمه في المدينة بالوحل ، فالمسؤ ول الصحي هناك (الذي نافسه العكاب في المقاولات من قبل ، وكرهه الان حتى الموت) يتحدث الناس الان عنه ، وعن خلوات له بزوجة العكاب ، في بيتها وفي وضح النهار !

لكأن سربا من العصافير النزقة هجم على باحة بيت قديم فزقزق ضاجّاً فيه فترة طويلة ، ثم غادره فجأة مخلفا وراءه السكون . . هكذا كان حال الجزيرة بعد اختفاء فرات العكاب ! لقد كفت العجائز الصلعاوات العجفاوات عن تبادل التخمينات حول مصير العكاب ، ومكثن قرب غرف الادارة، يجلسن في الشمس ، يتسقطن الأخبار عنه، بينما لم يصدق الممرض تماما ان يكون وراء ارسال فرات العكاب الى مستعمراتهم قصة غدر منذ البداية .

لقد كانت الشكوك تتأكل الممرض منذ قدوم العكاب اليهم واطلاعه على البقعتين الكالحتين ، تحت ابطه وفي باطن قدمه اليسرى ، فالرجل كما بدا له لم يكن مصابا بدائهم فعلا ، انما كان يعاني من التهاب جلدي حاد لا اكثر استغلته قوى شريرة للتخلص منه بارساله الى هذا المنفى ، ليخلو لها الميدان من بعد لتنفيذ مآربها الغامضة وراء ظهره ، فهل تتأكد اخيرا هذه الظنون والشكوك ! . .

اضحى هرب العكاب من الجزيرة دافعا لقاطنيها الى التفكير مرة اخرى بأن المظالم في جزيرة الملعونين لا تعدلها مظالم اخرى في مكان آخر من هذه الدنيا ، فتصاعد الاحساس عندهم بوضاعة شأنهم وحقارة الحياة التي

يعيشون ، ولكن السبيل الى ايصال شكواهم الى اصحاب المقام العالي والضمائر الحية استغلق عليهم وهم المعزولون عن العالم عشر مرات ، لم تعد مطالبتهم الادارة بتحسين ظروف العلاج منذ زمن طويل تجدي ، فهي تتصرف رغم ذلك كما تشاء ، ولم يبق امامهم الا الاستسلام لقدرهم وانتظار ما سينجلي عنه هرب العكاب ، الذي تصور البعض سببه ايضا قلة الدواء مع تفاقم الداء في جسمه ووجهه خاصة .

ليلة جاءه ذلك النبأ الاسود لم ينم فرات العكاب حتى الصباح ، ولم ينتبه الممرض لشرود العكاب ولتقرح عينيه نهار اليوم التالي ، فقد كان حاله فيما سبق من ايام لا يختلف عن هذا الحال ، وفي منتصف الليلة الثانية ترك العكاب الجميع نياما ، ونزل الى الماء بهدوء من الجانب الشرقي للجزيرة ، البعيد عن الجسر الخاضع للحراسة . خوّض في الماء فترة دون اثارة صوت ، ثم راح يسبح متجها الى شاطىء الاصحاء ، توقف مرتين خلال ثلاث ساعات عند مرتفعين معشوشبين التقاهما في طريقه ، فالتقط انفاسه برهة وواصل السباحة بعد ذلك . افاعي الماء لم يكن يخشاها ، وكانت جزر صغيرة تتناثر امامه الى اليمين ، كان العكاب يعرف ان الهلاك يتربص له هناك ، ثمة غابات القصب ، والمخاضات اللامتناهية ، والخنازير البرية ، واساطير الطفولة ، واذا هجمت عليه قرطة الان فماذا تجد في وجهه بعد لتلتهمه وقد جاء المرض على ما فيه ؟ انوار المدينة البعيدة توشّي السماء الظلماء عند الافق المنداح الى اليسار بوشاح رهيف ، كأن سحابة من الغبار ستزحف من هناك بعد قليل لتبتلع الدنيا ، تلك الانوار ترسم له معالم الطريق الى المدينة ، حاول الا يصدر صوتا اثناء سباحته ، اذا تعب تمدد على ظهره في الماء وارخى ذراعيه وساقيه كما كان يفعل ذلك اذ كان صغيرا . في احدى المرات ، وكان يسمع اصطفاق الماء في اذنيه ويوجه نظره الى السماء شديدة الصفاء ، فالكواكب تلهث متلاصفة بلمعان مخيف لكأنما تحدثت الى بعض بلغة سرية كادت ان تكون مفهومة لوعي هارب مثله ، تصور (بنات نعش) كأنهن على وشك النزول من القبة الشذرية الى الماء لانتشاله منه ووضعه الى جانب والدهن ، في التابوت الذي يحملنه فوق رؤوسهن ، شعر بالرعب من خيالاته اكثر مما كان يهدده من مخاطر في المياه . ليس الا الخوف يقضي على الانسان ، وما اكثر ما كانت مخاوفه محض اوهام وقت كان الخطر الحقيقي كامناً تحت جلده ، . . كانت تفاصيل عملية الهرب بدأت تهم الممرض تفصيلا بعد تفصيل ، فسأل فرات العكاب بلهفة فشل في اخفائها :

ـ وبعد ، مم كنت تخاف وانت في سلطان الليل والمياه ؟

فكر العكاب في الحال :

ـ الخيالات ، الخيالات اكثر خطرا على الانسان من اي شيء آخر .

كانت احدى قدميه تلامس احيانا اعشابا نابتة في القاع اذ يتلبث العكاب في الماء . فيستولي عليه خوف طاغ ، فكأن افاعي قاتلة تحاول الالتفاف عليه ، فيضطرب ويضارب الماء بكفيه عجلا هربا من ذلك المكان ، حتى كاد لشدة اضطرابه ان يشرف على الغرق ، كادت الخيالات تقتله اكثر من مرة ، لكن الخطر الحقيقي كان يكمن في المناطق التي ترتفع فيها اعشاب الماء حتى السطح ، تتحول تلك البقع انذاك الى افخاخ حقيقية مهلكة ان لم يجر تجنبها في الوقت المناسب قضت على المرء . . .

سعيا وراء التفاصيل التي اصبح امر التعرف عليها جيدا يهم الممرض ، سأل هذا صاحبه العكاب :

ـ ألم يكن بالامكان تجنب ذلك الطريق الصعب الطويل الذي اخترته للهرب ؟

ـ هناك خياران لا غير . اما سلوك هذا الطريق الطويل فالتعرض لمخاطر الماء ، او سلوك طريق اقصر فالتعرض لخطر انتباه الشرطة لمحاولة الهرب . .

لم يسلّم الممرض باستحالة الخلاص من هذا الحَجْر المنسي ، الغارق في الصديد والآلام ، واذا كان فرات العكاب قد اعيد اليهم مخفورا مع الشرطة مرة اخرى بعد ثلاثة ايام من هربه ، فلا بد ان يستطيع آخرَ الوصول الى مبتغاه في نهاية الامر والتخفي عن الاعين الراصدة الى الابد . ولكن العكاب ينفي هذا ، قائلا :

ـ وجوهنا تثير شبهة الاخرين ، فسرعان ما يتعرفون عليك ، فيلتقطونك كما تلتقط بكماشة جمرة سقطت من منقلة على فرشهم في غرف النوم . .

ذلك ما حدث معه . كانت الدنيا ما تزال ظلماء جهماء عندما شارف العكاب حدود المدينة ، ظل يتخفى في طرقاتها بادىء الامر ، حتى قارب بيته فجرا . حام حوله فترة ، ثم جمع شتات نفسه وتقدم الى الباب ، كان يخشى ان يكونوا قد شعروا بهربه هناك فانذروا شرطة المدينة لاستقباله . طرق الباب مترددا ، ومرت فترة طويلة دون ان يرد احد عليه ، طرقه مرة اخرى بتوجس وقوة ، فسمع بعد قليل وقع اقدام خلفه . . كانت ملابس العكاب قد نشفت على جسمه بعد ان قام بعصرها جيدا اثر خروجه من الماء ، ولكن يشماغه ـ الذي اعتاد كثيرون منهم لفّه حول رؤوسهم لاخفاء تشوهاتهم ـ كان قد فقده اثناء السباحة ، فوقف الى جانب من الباب كي لا يفزع بمرآه من يفتح له . . مرت لحظات ، وسمع صوت قريبة زوجته يستفسر عن الطارق ، فرد متلجلجا :

ـ انا . . فرات . .

ارتبكت قريبته بفتح الباب ، ولكنها ما ان اطلّت عليه اخيرا حتى جمدت في مكانها وكأن صاعقة تخرمتها او جنيا اوشك على استلاب روحها ، فغرت فاها واطلقت صرخة مصمتة لم يسمع العكاب مثيلا لها في حياته ، ثم سقطت مغشيا عليها . لم يجد الرجل مفرا من الهرب خشية افتضاح امره وقدوم الجيران ، ففر عن بيته كالكلب المبلول .

ظل العكاب يهوّم في الطرقات ، وكان بعض عابري السبيل يوجهون الى وجهه المشوه نظرات عطوفة قرفة دون ان يتعرف عليه احد من معارفه القدماء ، وكان التعب والسهد والجوع قد طحنته حتى الظهر . ولكن الغيرة ما فتئت تنهش في قلبه ، والحيرة بتفسير امر زوجته الجميلة ، ان صح ما وصله من انباء ، ظلت تستلب عقله . لقد عاشا معاً سنوات سمنا وعسلا ، واذا كانا لم يرزقا بطفل طيلة ذلك الوقت ، فهناك من عاش فترة اطول ثم قرّت الاعين اخيرا بحبة الروح ، فهل يمكن ان يكون جوهر الجمال سريع العطب ، عفن اللب ، هكذا ! واذا كان الامر هكذا حقا فهل الدنيا كلها قبح بقبح ؟ . . كلا ، لم يستطع العكاب الاستسلام الى هذه الفكرة ، ولعل الزمن الذي قضاه بين اولئك المشوهين حتى كاد يصبح واحدا منهم الى الابد هو ما يسوط افكاره في هذه الدرب . اما وهو يعرف

الان ، بعد ليل الامس الغربيب ، ان ثمة سماء من الصفاء والنقاء تنداح عاليا فوق تلك الجزيرة اللعنة ، فقد آمن لحظة ببقاء الجمال وخلوده . .

قرر العكاب ان يدلف الى بيت احد اصدقائه الخلّص ، اجتاحته الان رغبة عارمة لألقاء نظرة على نفسه في مرآة ، كان يريد ان يرى صورته الجديدة ، يريد ان يعرف حقيقته بعد كل ما حدث وجرى له ، المرايا في جزيرة الملعونين محرمة كالمنشورات ، لا احد يريد رؤ ية قبح نفسه ، ولكنه في المقابل يستطيع رؤ ية قبح الاخرين كل يوم ، بل يبحث عنه في وجه غيره ، ويتشفى به ، فذلك يتيح له ان يشعر بنفسه في وضع افضل ، ذلك هو حال المرضى ، تواضعوا عليه دون اتفاق ، لم يكن هناك من يرغب برؤ ية التحولات المتحركة على خارطة وجهه ، فكل منهم يود الاحتفاظ في ذاكرته بصورته وهي في اوج البريق ، قبل ان يصيبها الداء وامام المرآة في بيت صديقه ، دوّخه ما رأى . . ايمكن ان يكون هذا وجهه ! احقا ذهبت ملاحته وماضيه دون رجعة ! ماذا تبقى لديه اذن وصديقه هذا يؤ كد حكاية زوجته الغادرة الخائنة ؟ ما الذي فعله كي يستحق كل هذه الويلات ! هناك ما فعله ، هناك ما فعله ، هناك ما فعله بالتأكيد ، لقد كان مغفلا ، مغفلاً كبيرا ، حين سمح لهم ان يوهموه بذلك المرض ، حين سمح لنفسه ان تكون بتلك الطيبة والسذاجة مع ذلك القاتل المخاتل ذي المسوح البيضاء ، آه لو امسكت يداه برقبته ! . . ظل العكاب يتلفع يومين كالصعاليك بالشماغ الذي منحه صديقه له ، يبيت على الارصفة ، ويحوم تارة حول بيته ، وتارة اخرى حو ل المستشفى ، متخفيا ، متربصا في الزوايا ، علّه يلمح واحدا من اثنين : تلك الجميلة الخائنة . . ذلك المتنكر بملابسه البيضاء . . وفي اليوم الثالث شعر انه بدأ يثير الشبهات حوله ، ايقظه احد الحراس بهزة خفيفة من قدمه في تلك الليلة وسأله عن امره ، فاخبره العكاب بلا مبالاة مواصلا نومه ، انه قادم من الريف للبحث عن عمل في المدينة ، ظل الحارس متلبثا قربه برهة ، ثم مضى عنه مترددا . وفي نهاره الاخير اقترب من المستشفى فسمع فجأة اغنية كان يذوب تحنانا في لحنها من قبل ، تناهت من راديو فتح في مقهى قريب ، فتضارب في صدره إحساسان عنيفان ، يذكره احدهما بعالمه الزائل الذي بات قبيحا الآن ، والاخر يؤ كد له خلود هذا العالم الحي الجميل رغم كل شيء حوله . وكان عليه ان ينزل قصاصه الان بمن افسد ذلك التناغم بين هذين العالمين . كان العكاب في تلك اللحظة قد كف عن ان يشعر بجوع او برد ، رغم انه عاش الايام الثلاثة الاخيرة ضارياً من مخلوقات الفلاة ، اصبح روحا هائمة تخلصت منذ دهر من اوضار الجسد واوصابه . . واخيرا ، لمح العكاب المسؤ ول الصحي الكبير ينزل من سيارته ، ولم تمر لحظة حتى كان يبرك عليه ويمسك بتلابيبه محاولا القبض بكماشة من اصابع على حنجرته . لم يستمر الصراع بينهما طويلا ، فقد هوت ضربة جاسية على رأس العكاب على غير انتظار . ولم يفتح عينيه الا وهو مقيد في طريقه الى مستعمرة الجذام ثانية . . .

سأل فرات العكاب صاحبه الممرض على حين غرة ، بعد صمت طويل ، وكان يحدق بعينيه الملتهبتين ، اللتين فقدتا اشفارهما منذ زمن بعيد ، نحو الماء الراكد الآسن :

ـ هل كانت زوجة النبي ايوب جميلة ؟

تنحنح الممرض ، وتأمل ما قال محدثه بهدوء ، ثم اجاب :

ـ لا ادري ، ولكني اتصور انها كانت عاهرة ايضا كما تقول السير والاخبار . صمتا معاً .

خلال ذلك الوقت ، اسقط العكاب باصبعين عن حزوز شفتيه شيئا من مزقهما . ثم استفسر من صديقه الممرض :

ـ اما زلت تحتفظ بشفتيك ام ان المرض قضى عليهما كالبعض ؟

كان الممرض يشرف على فقدانهما ، كحالنا جميعا ، ولكنه . . اجاب بعد فترة :

ـ ما زلت .

نظر فرات العكاب اليه ، وقال :

ـ ارني اياهما ، منذ تعرفنا على بعض وانت تخفي وجهك عني بالشماغ ، اريد ان ارى وجهك . . .

تذكّر الممرض من ماضيه ، قبل اصابته بالمرض ، وهو موفد لزيارة هذه المستعمرة صحبة احد الصحفيين الشباب ، انه فشل انذاك في اقناع اي من المصابين للكشف عن وجهه امام عدسة كاميرا الصحفي الشاب لتصوير آثار المرض وتخريباته في ملامح الانسان بغرض إلحاق الصور بالتحقيق الذي كان الصحفي يعده عن هذا المكان ، ولم ينشر فيما بعد . . اما الان فلن يجد الممرض صعوبة كما يبدو في العثور على من يوافق الوقوف امام عدسة صحافة ، ما دام هو نفسه قد اصبح واحدا من قاطني هذه الجزيرة . . لقد قرر أن يصور نفسه ، وسيحمل بنفسه شكاوى المجذومين إلى من يهمه الامر ، غياب الدواء ، افتقاد الصابون ومستلزمات الشفاء الاخرى ، انعدام ذوي الاختصاص ، والاهم : ان يسرد على العالم حكاية فرات العكاب الغريبة هذه . وإلا فقد تضيق هذه الجزيرة بساكنيها بعد اعوام ، وقت يكون فيه قد فقد شفتيه تماما والى الابد . اما اذا رفضت ادارات الصحف الاستماع اليه كما فعلت مع ذلك الصحفي الشاب من قبل ،

كشف هو عن وجهه ومشى في الشوارع ليقرأ الناس ما كتب الداء فيه حتى يقبض عليه ، فيهرب ، فيقبض عليه ، فيهرب مرة اخرى . . .

رد الممرض على العكاب متمهلا :

ـ سأريك اياه قريبا ، . . انتظر إلى الغد .

مر المساء . الممرض ينتظر هبوط الليل . جزيرة الملعونين غارقة في سكونها . تمشىّ حتى حافة الماء . القى نظرة وداع اخيرة الى الوراء . كل ما حوله خمد وهمد ، الا ذؤ ابات اشجار الغَرَب ، كانت تهتز بأناة وبطء . هكذا ، تغلغل في الظلام ، راح يسبح بهدوء محاولا كتم طرطشة المياه . مرت فترة ، قطع فيها شوطا طويلا باتجاه يابسة الاصحاء ، بموازاة الطريق العام الممتد هناك بعيدا . . . الا ان السكون تمزق وراءه فجأه بصيحات آمرة ناهية تعالت قرب الجسر ، اختلطت في البدء باصطفاق الماء الذي تصاخب حوله ، ثم امتزجت بدوي اطلاقات تتالت متعالية في الفضاء ، حانت منه التفاتة سريعة الى الخلف ، فرأى في الظلام ما يشبه بلوطات محترقة ، ملتهبة ، تنقذف نحوه بجنون . . .

موسكو